الفصل السادس

المستر إيدن في وزارة الخارجية . واستقالته

obeikandl.com

obeikandl.com

إن وزير الخارجية في إنكلترا يتمتع بمكانة خاصة . ومع أنه يعامل بمنتهى الاحترام واللباقة ، إلا أن أعماله ومهامه المتعلقة بالشؤون الخارجية تبقى دائمًا تحت المراقبة ، إن لم يكن من جميع أعضاء وزارته ، فمن المتقدين منهم على الأقل ، كما أنه يتوجب عليه تقديم تقارير كاملة لزملائه ، كما أنه يتحتم على وزير الخارجية اطلاع رئيس الوزراء على جميع الأسرار مهما كانت .

وفي هذه الحقبة من الزمن كان المستر إيدن وزيرًا للخارجية في حكومة المستر بلدوين الذي كان معروفًا بميله الشديد إلى السلام والحياة الهادئة ، كما أنه لم يكن يسهم إسهامًا فعالاً في السياسة الخارجية ، أما بالنسبة للستر تشمبرلين فكان الوضع مختلفًا، فهو يريد الإشراف الفعلي على وزارة الخارجية ، وكانت له آراء ووجهات نظر قوية في الشؤوون الخارجية ، لذلك فقد أكد رغبته منذ البداية في بحث هذه الشؤون والنظريات مع جميع السفراء الأجانب ، ولهذا السبب أدى توليه منصب رئيس الوزراء إلى تغير ملحوظ في وضع وزير الخارجية المستر إيدن ، بالإضافة إلى بعض الأمور الأخرى التي كانت تباعد بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، لقد كان رئيس الوزراء راغبًا في إجراء شبه تفاهم مع الدكتاتوريين الأوروبيين ، وكان اعتقاده أن هذا يقوم في تجنب كل ما يسيء إليهما بالإضافة إلى روح التفاهم الخاصة ، أما إيدن فقد نال شهرته من جراء تحريضه لجميع دول أوروبا ضد موسوليني للدرجة أنه كان يريد المضي في فرض العقوبات ولو أدى ذلك إلى نشوب الحرب وكان إيدن يؤمن أشد الإيمان بفرنسا ، كما أنه كان يرغب في إقامة علاقات متينة مع روسيا السوفييتية ؛ لأنه كان يشعر بخطر هتلر ، وكان يخاف ضعف تسلحنا وانعكاسه على سياستنا الخارجية، لذلك كنت واثقًا أن الخلاف سيدب بين هذين الرجلين ، خاصة بعد تأزم الأوضاع العالمية واشتدادها .

وكان رئيس الوزراء يجد في اللورد هاليفاكس ، زميلاً ينسجم مع سياسته الخارجية كل الانسجام، وكنت أفضل ، والحالة هذه ، لو اعتمده وزيرًا للخارجية منذ تكليفه بتأليف الوزارة، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى المستر أنتوني إيدن ، وهكذا بدأت الخلافات تظهر إلى أن توسعت شقة الخلافات في الفترة الواقعة ما بين صيف عام ١٩٣٧ ونهاية العام ، إلى أن اضطر بعد ذلك المستر إيدن إلى تقديم استقالته في شهر شباط من عام ١٩٣٨ .

لقد كانت سياستنا الخارجية تجاه ألمانيا، من أهم أسباب الخلاف بين رئيس الوزراء ووزير خارجيته المستر إيدن، فقد قرر المستر تشمبرلين أن يتابع سياسة التقرب من الديكتاتوريين، واستدعى في شهر تموز من عام ١٩٣٧ سفير إيطاليا الكونت غراندي للاجتماع به في دوانغ ستريت. وكان المستر إيدن يعلم مسبقًا موضوع الحديث، لذلك لم يحضر الاجتماع هذا. وقد أفصح المستر تشمبرلين عن رغبته في تحسين العلاقات مع إيطاليا، واقترح عليه السفير أن يبعث برسالة إلى موسوليني يطلب إليه ذلك، ويناشده العمل في هذا الاتجاه. وسارع المستر تشمبرلين إلى كتابة هذه الرسالة، أثناء المقابلة، وبعث بها دون مراجعة وزير الخارجية الذي كان في مكتبه على بعد بضع خطوات من مكان الاجتماع. ولم تسفر هذه الرسالة عن أي نتيجة إيجابية بالطبع، بل ظلت علاقاتنا مع إيطاليا تدهور بسبب تدخل هذه في شؤون إسبانيا الداخلية.

وكان المستر تشمبرلين، يشعر بأن رسالته تتلخص في خلق جو من العلاقات الودية بين الدكتاتوريين، وخيل إليه أنه قادر على ذلك. وكان راغبًا في أن يعترف بحق إيطاليا في احتلال الحبشة كخطوة أولى نحو التقارب وكمقدمة لإيجاد حل شامل لجميع الخلافات. كما أنه كان يرغب في التنازل لهتلر عن بعض المستعمرات البريطانية. وفي نفس الوقت لم يكن يرغب في العمل على تحسين أوضاع التسلح في بريطانيا، أو في إيجاد تعاون وثيق مع فرنسا سواء في الشؤون العسكرية أم في الشؤون السياسية، أما المستر إيدن فكانت نظرته تقضي بأن أي تعاون مع إيطاليا، يجب أن يشمل جميع الشؤون المتعلقة بالبحر الأبيض المتوسط، بما في ذلك مشكلة إسبانيا. وكان يريد أن يجعل من مسألة الاعتراف بحق إيطاليا في الحبشة وسيلة للمساومة معها أثناء المفاوضات، لذلك وجد أن الاعتراف بهذا الحق أولاً ثم الرغبة في إجراء التفاوض لا يدل على الحكمة وبعد النظر.

وفي الخريف اشتدت هذه الخلافات، واعتبر المستر تشمبرلين أن وزير الخارجية يقف عقبة في طريق التفاهم مع الدكتاتوريين وفي الشروع في إجراء المحادثات مع ألمانيا وإيطاليا، كما شعر المستر إيدن أن رئيسه متسرع جدًا في محاولته التقرب من الدولتين المذكورتين لاسيما في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا على أشد ما تكون من الضعف من الناحية العسكرية.

❖ ❖ ❖

على الرغم من خلافاتي مع الحكومة ، فقد كنت أشعر بالعطف نحو وزير الخارجية المستر إيدن، فقد ظهر لي أنه أكثر الوزراء شجاعة وتصميمًا ، على الرغم من أنه أثناء عمله كسكرتير خاص وكوكيل لوزارة الخارجية ، من قبل ، كان مجبرًا على أن يكيف نفسه مع أمور عديدة كنت أهاجمها شخصيًا ، إلا أنني كنت أشعر أنه في قرارة نفسه يعارضها ويستنكرها ، كما أنه بدا لي عنصرًا طيبًا وممتازًا ، وكان يدعوني مرارًا إلى وزارة الخارجية ، وكثيرًا ما كنا نتبادل الرسائل بانطلاق وحرية ، ولم يكن هذا الأمر مستغربًا، فقد كان المستر إيدن شأنه شأن بقية الوزراء ، يرغب دائمًا في الاتصال بالشخصيات البارزة في البلاد ليستمزج رأيها في شؤون الساعة وفي القضايا الدولية .

وكنت قد انتهيت إلى وجهة نظر مشابهة مع وجهة نظر إيدن فيما يتعلق بنشاط دول المحور حول تدخلهم في الحرب الأهلية الإسبانية ، وكنت دائمًا أؤيده عندما يقف موقفًا صامدًا في مجلس العموم ، مهما كانت أهمية المواضيع المطروحة ، فقد كنت عارفًا بالصعوبات التي يواجهها من بعض أعضاء الوزارة وخاصة رئيس الوزارة بالذات ، وكنت على يقين من أن تشجيعي له سيبعث في نفسه روح الأمل والقوة ، وما أن نشبت أزمة جديدة في البحر المتوسط ، حتى عالجها بعزم ومهارة، واستطاع الوصول إلى حل أتبعته الوزارة على الفور ، فقد حدث أن أغرقت غواصات إيطالية عدة سفن تجارية ، بينما ادعت إيطاليا أن الغواصات ليست إيطالية بل إسبانية ، ودعي مؤتمر الدول البحرية إلى الانعقاد في (نيون) في العاشر من شهر أيلول ، وذهب وزير الخارجية يرافقه فانسيتارت واللورد شاتفيلد ، لورد الأميرالية الأول ، وقرر المؤتمر إيفاد غواصات بريطانية فرنسية تقوم بعمل دوريات في البحر المتوسط ، وتحمل أوامر مشددة بإغراق كل غواصة تقابله، وفي الحال رضخت إيطاليا إلى هذا القرار واختفت أعمال القرصنة .

ويعتبر هذا الحادث دليلاً ظاهرًا على أهمية العمل المشترك بين بريطانيا وفرنسا ، إذا نفذ بصدق وقوة تجاه الديكتاتوريين الأوروبيين ، أن مثل هذه السياسة كان في مقدورها لا أن تمنع نشوب الحرب بل أن تؤجل وقوعها على الأقل ، فالحقيقة الماثلة أمامنا هي أن سياسة التهدئة كانت تزيد من حدة عدوان الديكتاتوريين ، وتزيد من شعبيتهما ، وأن أي هجوم إيجابي معاكس من قبل الديمقراطيات الغربية سيؤدي فورًا إلى التخفيف من حدة هذا

العدوان ، وقد بقيت هذه النظرية سائدة طيلة عام ١٩٣٧ ، أما بعد ذلك فقد تغيرت الأوضاع وتبدلت كل التبديل .

وشعر إيدن بقلق يتزايد يومًا بعد يوم من بطء تسلحنا ، وما كان منه إلا أن قابل رئيس الوزراء وشرح له مخاوفه وشكوكه ، وكان رد رئيس الوزراء عليه بأن نصحه أن يعود إلى منزله ويتناول قرصين من الإسبيرين .

أما الخلاف الحقيقي فنتج عن مسألة مختلفة تمام الاختلاف عن المسائل السابقة ، ففي مساء الحادي عشر من شهر كانون الآخر عام ١٩٣٨ ، قام وكيل وزارة الخارجية الأميركية، المستر سمنر ويلس بزيارة السفير البريطاني في واشنطن ، وكان يحمل معه رسالة سرية من الرئيس روزفلت إلى المستر تشمبرلين ، فقد شعر الرئيس الأميركي بخطورة الوضع الدولي المتدهور ، وأحس بالقلق المتزايد فاقترح دعوة بعض ممثلي دول معينة إلى اجتماع لبحث المشاكل الحالية ، لكنه أراد قبل تنفيذ هذا الاقتراح ، أن يستشير الحكومة البريطانية في وجهة نظرها حول هذا الاقتراح ، وطلب أن يكون الرد جاهزًا قبل السابع عشر من كانون الآخر ، وأشار في رسالته إلى أنه إذا وجد اقتراحه هذا قد حظي بموافقة حكومة جلالته القلبية وتأييدها المطلق ، فعندئذ ، وفي هذه الحالة فقط ، سيباشر اتصالاته مع حكومات فرنسا وألمانيا وإيطاليا وللحقيقة كانت خطوة هائلة وفوق ما يتصوره الإنسان .

وعندما قام السفير البريطاني بنقل هذه الرسالة إلى لندن ، أوصى حكومته بضرورة الموافقة عليها بأسرع وقت ممكن ، وتلقت وزارة الخارجية برقية واشنطن ووزعت نسخًا عنها في الثاني عشر من كانون الآخر إلى منزل رئيس الوزراء في الريف ، وفي صباح اليوم الثاني حضر رئيس الوزراء إلى مكتبه ، وأرسلت الوزارة بردها على رسالة الرئيس روزفلت ، حسب تعليمات رئيس الوزراء ، أما المستر إيدن فكان في إجازة قصيرة يمضيها في جنوب فرنسا ، وكان رد المستر تشمبرلين ، أنه يقدر هذه الثقة التي وضعها الرئيس روزفلت حين استشاره في موضوع اقتراحه المتعلق بإزالة حدة التوتر في أوروبا ، إلا أنه يريد أولاً أن يشرح له الموقف بالنسبة إلى الجهود التي يقوم بها للوصول إلى اتفاق مع ألمانيا وإيطاليا ، لاسيما إيطاليا بصورة خاصة ، ومضى يقول في رده: «إن حكومة جلالته مستعدة ، بتفويض من عصبة الأمم أن أمكن ، للاعتراف باحتلال إيطاليا للحبشة ، إذا ما وجدت أن الحكومة

الإيطالية ، على استعداد هي الأخرى لتبرهن عن رغبتها في الإسهام في إعادة الثقة والعلاقات الودية » ، وأنهى المستر تشمبرلين رسالته بقوله أنه يعرض هذه الحقائق ليرى الرئيس روزفلت ما إذا كانت اقتراحاته تتعارض والمجهود الذي تبذله بريطانيا ، وما إذا كان الرئيس يرى أنه من الأفضل تأجيل اقتراح مشروعه الأميركي هذا .

وكانت خيبة الأمل كبيرة لدى الرئيس روزفلت لهذا الرد ، وقد قال للسفير البريطاني: بأنه سيجيب على رسالة تشمبرلين برسالة يبعثها له في السابع عشر من الشهر الحالي ، أما إيدن ، وزير الخارجية ، فقد قطع إجازته وعاد إلى لندن على وجه السرعة ، بعد أن علم من موظفيه المخلصين في الوزارة ، ما جرى أثناء غيابه ، وقد انزعج إيدن من هذا الحادث كثيرًا ، فقد عمل طويلاً لتحسين العلاقات بين بريطانيا وأميركا ، وحاول أن يخفف من تأثير الرد فأبرق إلى المستر روتالد ليندسي ، حول الموضوع .

ووصلت رسالة الرئيس روزفلت إلى لندن في الثامن عشر من الشهر الحالي ، وفيها قال الرئيس أنه يوافق على تأجيل اقتراحاته لأن الحكومة البريطانية تفكر في إجراء مفاوضات مباشرة، وأضاف معربًا عن قلقه الشديد من اقتراح تشمبرلين حول اعتراف بريطانيا باحتلال إيطاليا للحبشة ، وقال: إن مثل هذا الاعتراف سيترك أثرًا سيئًا على سياسة اليابان في الشرق الأقصى ، وعلى الرأي العام الأميركي أيضًا، وقد أضاف المستر كوردل هل ، الذي قام بتسليم الرسالة إلى السفير البريطاني ، بقوله : «إن هذا الاعتراف سيبعث على الازدراء ، وسيرسم صورة واضحة للمساومة القذرة التي ستنفذ في أوروبا على حساب المصالح الأميركية في الشرق الأقصى والتي تهم أميركا كثيرًا ... » .

وقامت اللجنة الوزارية للشؤون الخارجية بدرس رسالة الرئيس روزفلت ، وبعد سلسلة من الاجتماعات أرسلت إلى واشنطن رسالتين مضمونهما إن رئيس الوزراء يرحب كثيرًا برسالة الرئيس روزفلت إلا أنه لا يتحمل أي مسؤولية في حال فشلت العروض الأميركية ، كما أنه يلفت نظر الرئيس روزفلت إلى أنه ربما قد أساء فهم موقف حكومة جلالته بالنسبة إلى الاعتراف ، وقد شرح في الرسالة الثانية حقيقة موقفنا ، فقد كنا عازمين على تقديم اعتراف كهذا ليكون جزءًا من تسوية عامة مع إيطاليا .

روزفلت

وعندما قام السفير البريطاني بتسليم المستر سمنر ويلس الرسالتين قال له : «إن الرئيس روزفلت يعتبر مسألة الاعتراف هذا كدواء مر ، إلا أنه يجب علينا أن نشربه معًا ، كما أنه يريد أن نشرب هذا الدواء معًا وفي آن واحد ... » .

وهكذا رفض المستر تشمبرلين اقتراح الرئيس روزفلت ، علمًا أن نفوذ الولايات المتحدة كان ضخمًا مع ما يمكن لها أن نستعمله من قوة جبارة !

***

وفي ساعة متأخرة من ليل العشرين من شباط ن جاءني الخبر إلى غرفتي القديمة في شارنويل بأن المستر إيدن قد قدم استقالته من الوزارة ، وهنا يتحتم على أن أعترف بأني حزنت كثيرًا ، وشعرت باليأس يسيطر علي ، لقد مررت بظروف عصيبة طيلة حياتي ، وفي سنين الحرب ، وفي أحلك ساعاتها المرعبة لم أشعر بالقلق الذي يحرمني طعم النوم ، ففي

أزمة عام ١٩٤٠ حيث كانت المسؤوليات الضخمة ملقاة على عاتقي، وفي السنوات الخمس التي تلتها، كنت فريسة للقلق والفزع، إلا أني كنت أمضي إلى فراشي وأغرق في سبات عميق، وأستيقظ في الصباح نشيطًا، لا أشعر بتعب الليل الفائت بل أمضي إلى عملي لأواجه المشاكل الضخمة وأحاول أن أعالجها. أما اليوم وفي ليل العشرين من شهر شباط عام ١٩٣٨، وفي هذه المناسبة فقط، شعرت بالأرق، ولم أنم طوال الليل، وبقيت حتى الصباح في فراشي أفكر بكثير من الأسى والخوف بذلك الشاب القوي الذي صمد بوجه تيارات مخيفة من الانشقاق والاستسلام، ومن الحسابات الخاطئة، والدوافع الضعيفة...

❖ ❖ ❖

obeikandl.com

obeikandl.com